الفصل الثانى

حجر الزاوية فى شخصية شاكر

(قصة الإنتحار)

كنت أود أن أثبت هنا نص رسائل محمود شاكر التى حرض عبرها أستاذه الرافعى لإبداء رأيه فى قضايا شتى لما تحمله من علمه بالفقه والنحو ومن الغيرة على دينه .. لولا أنها تبعدنا عن موضوعنا الأصلى .. تؤكد هذا المعنى ، وأن هذه الرسائل كانت وراء مبادرة الرافعى لكتابة مقالات من عيون الأدب حيث ينهى شاكر أحد رسائله للرافعى - حول تفضيل أحد الكتاب لعبارة جاهلية هى (القتل أنفى للقتل) على قول الله تعالى فى كتابه الحكيم «ولكم فى القصاص حياة» .. استنجد شاكر بالرافعى مستفزا إياه للرد عليه بقوله : «وأعلم أنه لا عذر لك أقولها مخلصا ، يمليها علىّ الحق الذى أعلم إيمانك به .. ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تتناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التى جعلت همها أن تلغ ولوغها فى البيان القرآنى .. ولست أزيدك فإن موقفى موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين ، وأذكر حديث رسول

الله صلى الله عليه وسلم : «من سـئل علما علمه فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجـام من نار» أو كما قال والســلام عليكم ورحمة الله ثم وقع م . م . ش ..

ويصور العريان حالة الرافعي بعد أن قرأ هذه الرسالة بقوله : «أخذ يردد الحديث الذى ذكره محمود شاكر مرات ومرات وملأ نفسه بمعانيه .. وبعد الاحتشاد رد على الكاتب كما طلب منه شاكر «وقد التفت إلى هذه الرسـائل عندما قرأت كتـاب الأستـاذ محمـد سعيد العريان عن الرافـعى أول مـرة .. أما الذى جد لى عند قـراء تى له بـحـثـا عن ظلال محنة شاكر عند مفارقته للجامعة ، فهو ورود اسمه فى فهرس الاعلام فى الصــفــحـــات ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ ، ٢١٢ ، ٢١٧ لا ســيــمــا أنه استوقفنى يوم قرأت الكتاب لأول مرة لما بهما من رموز ، حيث كتب العريان ما يلى : «وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعى اهتزازا عنيفا ونقلته من حال إلى حال ، جلست يوما إليه نتحدث فى أحاديثنا فقال إن صديقنا «م» لم يكتب إلينا من زمن .. ليت شعرى ما منعه عنا ؟ إن بى قلقا عليه وفى نفسى أن أراه أو أعرف من خبره» .

وفى صبيحة اليوم التالى طالعتنا الأهرام بخبر غامض .. «أن شابا من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان فى يده » .

«وقرأ الرافعى الخبر فأربد وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : اقرأ ، إنه هو ..»

قلت : «من تعنى» ؟

قال : صديقنا «م» لقد غلبه شيطانه على دينه آخرة أمره .. غفر الله له .

«فجزعت وطارت نفسى ، وقلت له وأكاد أغص بريقى «م» إنك لتتوهم وإنك مما تفكر فى شأنه ليخيل إليك . إن لصديقنا ديناً ، وإن فيه تحرجا وخشية وما أراه فى أى أحواله يقدم على مثل هذه الجريمة» .

ولكن الرافعى لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان ، ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى «م» يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ، ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه ، وما حمله عليه وما آل إليه من أمره ، ولم ينس مع كل أولئك وما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه الدقة فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت ، فإنها المرحلة التى لا يحسن أن يصفها إلا من أحس بها » .

ثم طفق الأستاذ سعيد العريان يتحدث عن «م» فيقول : وصديقنا الأستاذ «م» أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تحرج وخشية ، وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والذود عن حرماته ، وهو شاب عزب بعيد الخيال دقيق الحس مرهف الأعصاب ، وعلى أنه يعيش فى ظل وارف ونعمة سابغة من سعة خياله ودقة حسه ، وحدة أعصابه متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت فى وجهه

وعلى طرف لسانه معنى دفينا من معانى الألم ، وما يرى نفسه فى أكثر أحواله إلا غريبا فى هذا العالم وبين هؤلاء الناس ، فإن له من خياله دنيا غير دنيا الناس ، وعالما غير هذا العالم ، يتمثل فيه المثل الأعلى الذى أعياه أن يبلغه على هذه الأرض ، وكانت بينه وبين الرافعى ود وله فى نفســـه مكان ، فكان له ســره ونجواه منـــذ كان فتى يافعا لم يبلغ العشرين ، وكان الرافعى يعتد بصداقته ويقر له ويعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلا مجيدا بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام .

ويردف الأستاذ العريان فيكتب : «فلما بلغ الرافعى نبأ شروعه فى الانتحار جزع وتطير ، وضاقت نفسه ، وناله من الهم ما لم ينل لحادث مما لقى فى دنياه .. فمن أجل هذه الحادثة أنشأ مقالاته الستة عن الأنتحار . المنشورة فى «وحى القلم» ولما لم يكن عندئذ يعلم من أحوال صاحبنا ما دفعه إلى هذه المحاولة الطائشة ، فقد أخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبنى عليها الحديث والقصة ، فما جاء جواب الأستاذ «م» إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث فى هذا الجزء على لسان «أبى محمد البصرى» وهو يعنى به الأستاذ «م» فهو هو وكلامه كلامه فى جملته ومعناه لم يغير منه الرافعى إلا قليلا من قليل – وقد بدأها كما بدأ سابقاتها بـ «قال المسيب بن رافع .. هذا هو ضيفنا «أبو محمد البصرى» يتخوض الناس ليجىء .. فيحدثنا حديثه فى قتل نفسه والإثم بربـــه ، فلو قيل لى : إن قوس السماء بأحمره وأصفـــره وأزرقه وأخضره قد وقع إلى

الأرض واصطبغ من ألوانــه أو حــالا وأقــذارا ، لكان هذا كـهـذا فى تعاظمه وإنكاره . والعجب منه فأبو محمد من الرجال الحُمُس الذين لو كفر أحدهم ثم قيل «إنه كفر» لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعتها ، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تألّى أن يعمل عملا يخرجُ به من الكون .. ونعوذ بالله من خذلانه ، فلقد يكون الرجل المؤمن فى تشـــدده ، وإيغاله فى الدين ، كالذى يصنـــع حبلا يفتله فتلا شديدا فيمره على طاق بعد طاق ، ليكون أشد له وأقوى ثم يجاذبه الشيطان حبله ، فإذا هو كان فى الوهن مثل العنكبوت اتخذت بيتا فى سقف حداد»...

هذا بعض ما رواها الأستاذ سعيد العريان عن قصة الاستاذ «م» التى رواها فى كتابه عن الرافعى.. فى الجزء الخاص واستشهاده بالمقالات التى كتبها الرافعى بوحى من رسائل محمود شاكر له . فهل يريد الأستاذ سعيد العريان أن يقول لنا أن السيد «م» هو الأستاذ محمود شاكر ؟ إن هذا غريب بالطبع .. ولكن التعجب هنا يجب ألا يمنعنا من تأمل اتفاق وجوه الشبه بين ما وصف به الأستاذ سعيد العريان «م» فى كتابه عن الرافعى وما وصف به نفسه الاستاذ محمود شاكر نفسه فى كتبه وسائر مقالاته .. وذلك فيما بين الاثنين من صفات شخصية وفنية ونفسية وخصائص الاسلوب .. ونهج البيان.. بل اتفاق فى النشأة فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه .

ولأن «م» العزب العف ركز فى رسالته على الصراع الناشىء بين

العزوبة والعفة.. فقد تكهن الرافعي أن نفض إليد من الحياة كما يأتى أحيانا من عمل العقل إذ هو تحكم فى الدين يأتى البعض من عمل هذا العقل إذ هو تحكم فى القلب، وأن «م» ربما زاد من حيرته الثقافية أنه قد وقع أسير تجربة حب فاشلة.. لذلك أردف الرافعى العارف بكل أحوال تلميذه وصاحبه «م» الذى تمثل رسالته المقالة الرابعة عن الانتحار بمقالين عن الحب .

هذا وهذا وذاك كله يتضاءل أمام نقطة مهمة ، جاءت على لسان الرافعى «المسيب بن رافع» وعلى لسان الأستاذ «م» أيضا ووجدنا صداها بيانا عيانا عند محمود شاكر - فيما كتبه بعد ذلك بسنين - ألا وهى الزلزلة الدينية - حقا إن عملية وضع الإنسان نهاية لحياته كفر فى حد ذاتها - حتى أن الرافعى وصفها للعريان - كما أسلفنا - بقوله : صديقنا «م» لقد غلبه شيطانه على دينه آخر الأمر غفر الله له، . والمسيب قدم الاستاذ «م» بقوله : هذا هو ضيفنا أبو محمد البصرى يتخوض الناس يجىء فيحدثنا حديثه عن قتل نفسه والإثم بريه، فلو قيل لى : إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالا وأقذارا لكان هذا كهذا فى تعاظمه وإنكاره والعجب منه، فأبو الحسن من الرجال الحمس الذين لو كفر أحدهم ثم قيل «أنه كفر» لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعها .. كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تأبى أن يعمل عملا يخرج به من الكون ..

لذلك ركز الأستاذ «م» أو أبو الحسن البصرى فى كلامه الموجه إلى المسيب أو الرافعى على أنه «ينبغى للمؤمن أن يكون فى كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة فهو أبدا محترس . «فلو نحن كنا مسلمين إسلام نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإسلام المقتدين به، لأدركنا سر الكمال الانسانى وهو أن يقر الإنسان فى عالم نفسه ، ويجعل باطنه كباطن كل شىء إلهى .

هذا كله ما أثاره كتاب العريان عن الرافعى الذى كتب محمود شاكر مقدمته. ترى ماذا جاء فى هذا الشأن فى كتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبى الذى كتب مقدمته أيضا ؟.

فى «فصل فى إعجاز القرآن» وجدناه يقول عن الطريق الذى سلكه المؤلف فى وضع كتابه : وقد صهرتنى المحن دهرا طويلا .. فاصطليت بالأسباب التى دعته إلى اتخاذ منهجه - اى مالك بن نبى - فى تأليف هذا الكتاب ، ثم أفضيت إلى الغاية التى أرادها، بعد أن سلكت إليها طرقا مخوفة، وقد قرأت الكتاب وصاحبته، فكنت كلما قرأت منه فصلا أجدنى كالسائر فى دروب قد طال عهدى بها ، وخيل إلى أن مالكا لم يؤلف هذا الكتاب إلا بعد أن سقط فى مثل الفتن التى سقطت فيها من قبل ثم أقال الله عثرته بالهداية .

وعن منهج الكتاب، قال : «وهذا المنهج الذى سلكه مالك ، منهج مستمد أصوله من تأمل طويل فى طبيعة النفس الإنسانية، وفى غريزة التدين فى فطرة البشر ، وفى تاريخ المذاهب والعقائد التى توسم

بالتناقض أحيانا ولكنها تكشف عن مستور التدين فى كل إنسان، وفى خلال هذا المنهج تستعلن لك المحنة التى عاناها مالك كما عانيتها أنا»..

أما عندما ذكر الاستاذ مالك قضية الشعر الجاهلى (١) بأدواتها ومناهجها - فقد أكد محمود شاكر أنها تركت فى العقل الحديث وفى العالم الإسلامى اثرا لا يمحى إلا بعد جهد جهيد ولذلك أشار على المؤلف : ولا تحاكم مرجليوث وأشياعه إلى رأيك ونظرك بل دع محاكمته لمستشرق مثله هو «آربرى» الذى فنده فى خاتمة كتابه «المعلقات السبع» بقوله : إن السفسطة وأخشى أن أقول الغش فى بعض الأدلة التى ساقها الاستاذ مرجليوث أمر بين جدا، ولا تليق البتة برجل كان ولا ريب ، من أعظم أئمة العلم فى عصره . وهذا حكم شنيع . لا عن مرجليوث وحده ، بل على اشياعه وكهنته وعلى ما جاءوا به من حطام الفكر» .

★★★

ولهذا وذاك ظلت محاولة محمود شاكر تمور فى نفسى وفى خاطرى إلى أن تعرفت على شخصيته الآسرة بابتسامتها إقبالا على الحياة وحفاوة بكل من يدخل بيته ، حيث لم يبد كل هذا فكرتى عنه التى كنت

---

(١) فس سنة ١٩٩٦ أب يعد ٧٠ عاما من مصادرة كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين الذى هو صدى لأقوال مارجليوث . أحتفل المجلس الأعلى للثقافة بصدوره وتبارى ٤٠ باحثا فى تجلية ما آثاره هذا الكتاب فى السياسة والثقافة وما جازه المثقف العربى من استنارة.

قد أيدتها بكثير من البراهين فقط بل أحالتها إلى محض تفلسف وجموح فكر .

ولكن ما أن صدرت الطبعة الثانية من كتابه المتنبى إلا ووجدته يجابه القراء وكل من يهمه (١) الأمر ببيان هام حيث قال : «أعلم أنى قضيت عشر سنوات من شبابى فى حيرة زائفة وضلالة مضنية وشكوك ممزقة حتى خفت على نفسى الهلاك وأن أخسر دنياى وآخرتى . محتقباً إثماً يقذف بى فى عذاب الله بما جنيت فكان كل همي يومئذ أن التمس بصيصا أهتدى به إلى مخرج ينجينى من قبر هذه الظلمات المطبقة عليّ من كل جانب، فمنذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى ١٩٢٦ إلى أن بلغت السابعة والعشرين ١٩٣٦ ، كنت منغمسا فى غمار حياة أدبية ، بدأت أحس إحساسا مبهما أنها حياة فاسدة من كل وجه ، يومئذ طويت كل نفسى على عزيمة حذاء ماضية، أن أبدأ وحيدا منفردا رحلة طويلة جدا وبعيدة جدا وشاقة جدا ومثيرة جدا».

ولا شك أن هذا الاعتراف الجلى الواضح الذى أذاعه محمود شاكر هنا.. يعكس فى الأساس آثار الأزمة الثقافية التى ترسبت في نفسه من انغماره فى الحياة الادبية الفاسدة من كل الوجوه والتى نكأ جرحها أطروحات استاذه طه حسين حول الشك فى الشعر الجاهلى ..حيث مال الميزان واهتزت مثله العليا متمثلة فى هيبة الجامعة أيضا ومكانة استاذه التى احتلت فى قلبه مكانا خاصا كذلك .

---

(١) وكأنه احس بأن كثيرين قبلى قد استشفوا حدوثها أو استنكروها ففضل أن يقولها بلسان نفسه .

وعندما تسقط المثل العليا يبدأ الانسان فى فقد الثقة بنفسه وفيمن حوله وخصوصا إذا كانت هذه الصور والاشكال من المثل العليا، تتعارض جذريا مع مثل عليا أخرى أكثر رسوخا فى نفسه وهى المثل العليا التى يمثلها دينه وعروبته .

وعلى ما يبدو فقد تطلبت منه الأزمة صراعا قاسيا يتنقل بين الحب والكراهية وبين الحيرة المدمرة التى كانت تستوجب عليه أن يضحى بواحد منهما فكان عليه أن يختار أى الجانبين ، فاختار العروبة والإسلام مضحيا وملقيا - بعد صراع طويل وقلق ناشب فى النفس - بكل أشكال الفساد من حوله وبصورة الجامعة وشخص استاذه الذى يكن له التقدير .

ولا شك أن هذا القلق قد ولد لدى الاستاذ محمود شاكر شعورا غامرا من الإحباط الذى يولد فى كثير من الاحيان شعورا قويا بالعدوان حتى ليمكننا القول إن محاولته الانتحار هى فى جوهرها عدوان موجه إلى الآخر عبر الذات.. فهو حينما كان يحاول قتل نفسه.. كان كمن يحاول قتل من يريد أن يوجه إليه عدوانه عبر فساد المجتمع وصورة الجامعة وشخص أستاذه باعتبارهما الآخر الذى يحتل جزءا من ذاته - حتى ليمكننا ان نعتبر قتل الآخر فى صورة الذات هى قطيعة نفسية سيكولوجية ، أو نفى تلك الذات الأخرى وميلاد آخر جديد مغاير ومختلف وأيضا لذات جديدة مغايرة ومختلفة .

أو قل هى محنة تشبه الموت الذى يعقبه الميلاد ، أو الموت الذى يعقبه البعث.. لا سيما أنه فى هذه الفترة القلقة من حياة الشباب ،

تستبد بهم الرغبة فى الاستقلال عمن يؤثرون عليهم. ويتأثرون بهم سعيا منهم ورغبة فى تأكيد ذواتهم.. حتى إننا يمكن أن نؤكد دون عناء أن عثور محمود شاكر واهتداءه لمنهجه الفكرى التذوقى الخاص به بعد ذلك ، هو النقيض لمنهج استاذه سواء فى الشك أو فى دراسة الأدب العربى كتاريخ .

إذن فالتذوق بلا شك هو ثمرة هذه المحنة وعطاء هذه المشقة القاسية التى عصفت به حتى كادت أن تؤدى به إلى الهلاك .

نهضة عقب كبوة

نعم .. فتتابع وقائع حياة محمود شاكر تقول إنه بعد عودته من بلاد الحجاز ولم يتجاوز العشرين إلا قليلا. وهو السن الذى يكون فيها الإنسان قادرا على إجراء اكتشاف ما، ولأنه كان يلتمس بصيصا يهديه، أو إلى مخرج ينجيه من قبر الظلمات من كل جانب.. وسرعان ما تماست حيرته هذه فى نفسه إلا والتحمت مع موهبته وذكائه وغزارة اطلاعه .. فنجمت فكرة البحث عن منهج خاص به يجد فيه خلاصه .. وهو ما عبر عنها بقوله(١) : «يومئذ طويت نفسى على عزيمة حذاء ماضية أن أبدأ ، وحيدا منفردا ، رحلة طويلة جدا ، وبعيدة جدا ، وشاقة جدا ، ومثيرة جدا ..

«بدأت بإعادة قراءة الشعر العربى كله ، أو ما وقع تحت يدى منه

---

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا .

يومئذ على الأصح ، قراءة متأنية طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى، كأنى أقلبها بعقلى واروزها «أى أزنها مختبرا» بقلبى وأحسها جسا ببصرى وببصيرتى وكأنى أريد ان أتحسسها بيدى وأستنشىء «أى أشم» ما يفوح منها بأنفى وأسمع دبيب الحياة الخفى فيها بأذنى ، ثم أتذوقها تذوقا بعقلى وقلبى وبصيرتى وأناملى وأنفى وسمعى ولسانى، كأنى أطلب فيهما خبيئا قد اخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته واتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوا أو سهوا تحت نظم كلماته ومعانيه دون قصد منه أو تعمد أو إرادة» .

ورغم هذه المشقة والضنى فإن محض محصلتها كانت على حد قوله :

«واكتسبت يومئذ بعض الخبرة بلغة الشعر وبفن الشعراء وبراعتهم ، ثم انفتح لى خلال ذلك، باب آخر من النظر ، قلت لنفسى «الشعر كلام صادر عن قلب إنسان مبين عن نفسه.. فكل كلام صادر عن إنسان يريد الإبانة عن نفسه خليق أن أجرى عليه ما أجريته على الشعر من هذا التذوق الشامل الذى وصفته آنفا فأخذ أهبته لتطبيق هذا التذوق على كل كلام ما كان هذا الكلام».

ولأنه ربما استهول طول الرحلة التى سيجتازها .. وعمق وزخم ما سيقرأه استعداداً لها .. أى قراءة كل ما يقع تحت يده من إرث أجداده العظام، هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه، وأصول فقه، وأصول دين وملل ونحل إلى بحر زاخر من الأدب والنقد

والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأ الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافيا.. وكل هذا يمثل طريقا وعرا متشعب المسالك محيراً. هل يواتيه الوقت للسير فيه إلى نهايته ؟ أم لا فيتخلى عنه . ولاسيما أنه كان يشعر وهو يكرس حياته لهذا العمل بمعاناة إنسان يضع لنفسه مبادىء سامية ليبشر بها بعد ذلك فى سهولة ويسر .

ذلك أن خطر الانتحار يزداد كثيرا عندما يبدأ صاحبه فى التحسن من حالة ما - وهى هنا البحث عن خلاصه بأن يرفض متخوفا حذرا شيئا فشيئا ، أكثر المناهج الادبية والسياسية والإجتماعية التى كانت تقوض كل قائم فى نفسه وفطرته. كما قاله هو فى مقدمته للمتنبى . «إذ يكون الصراع بين الرغبة فى الحياة ومواصلة الرحلة التى بدأت والعزم على التخلى عن مشروعه.. إذ ذاك فى أحد أدواره» .

والشاهد أن إنقاذه من الموت هنا كان مدخله للإقبال لإقباله على تأصيل منهجه وهو أكثر صلابة وقوة ، باعتبار أن التجربة التى لا تميتنى تقوينى .. بدليل أن الاستاذ «م» هون من سخط المسيب إقدامه عن الانتحار بقوله : «لا يفزعنك أيها الشيخ فان الله تعإلى قد يجعل ما يحبه فيما نكره نحن ، وقد نسمى النازلة تنزل بنا خسارة وهى ربح، أونقول مصيبة جاءت لتبديل الحياة، ولا تكون إلا طريقة تيسرت لتجديد الفكر» .

زد على ذلك قول «م» أو محمود شاكر بعد أن أفاق من غيبوبة الانتحار ثم جدد إيمانه: «ولم أكد أفعل حتى احسست كأن قوة الوجود كلها مستقرة فى روحى، وخيّل إلىّ أنى أنا وحدى القوى على هذه

الارض قوة جبالها وصخورها على حين كان جسمى ممددا كالميت لا يتماسك من الضعف. فأيقنت حينئذ ما لم أعرفه قط فى الدنيا ، ولم أشعر به قط فى الحياة، ولم يأتنى به علم قط من الدنيا.. أيقنت أنها معجزة الإيمان الجديد ، المتصل بالله لتوه كايمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة أو يعترض خاطره أو تكدره ذرة واحدة من فكر أرضى دنس .

★★★

قد نكون قد أسهبنا فى التغلغل داخل تفاصيل هذا الحادث ، ومابدر منا ذلك إلا لأننا اعتبرناه حجر الزاوية فى شخصية محمود شاكر ، لأن ما يصنع الكاتب هو جملة تحيزاته حتى لنسأل على منوال ما قاله الاستاذ كمال النجمى سابقا : هل حدث قط فى تاريخ الادب العربى، أو فى تاريخ الأمة العربية من المحيط إلى الخليج أن وضع أديب رأسه على كفه مقابل تغيير الفساد من حوله .

وهكذا اتسعت خطواته ولوجا إلى كل قول كما نفهم من قوله : «فأقدمت إقدام الشاب الجرىء على قراءة كل ما يقع تحت يدى من كتب أسلافنا التى سجلناها آنفا ، عندما تكلمنا عن أثر تكاكؤ هذه الكتب فى كل هذه العلوم حوله . فشك فى قدرته أو موافاته بالوقت الذى ينجزها فيه - وشيئا فشيئا ومع تجدد إيمانه بعد حادثة الإنتحار واحساسه أن قوة الوجود كلها مستقرة فى روحه انفتح له الباب يومئذ على مصراعيه فيقول: «فرأيت عجبا من العجب» ..

وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خافتة كالهمس ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت ، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول . أمدتنى هذه التجربة الجديدة بخبرات جمة متباينة متشعبة ، أتاحت لى أن أجعل منهجى فى تنوق الكلام منهجاً جامعا شاملا متشعب الانحاء والاطراف يزداد على تطاول الايام رحابة وسعة ، وحدة ومضاء، ونفاذا وشمولا واستقصاء، أى أن هذه المحاولة قد أدت إلى التطهير والبعث الروحى كما تعبر الدراما إليونانية ولم تكن محاولة إقدامه على الموت من القلب.. لأن المنتحر يضع خطة الانتحار وضعا محكما كما ينتقى خطة التنفيذ بصرف النظر عما تسببه من ألم وعذاب وطريقة محمود شاكر التى جاءت نتيجة لحيرة وانته ربما وهو يحلق ذقنه بالموس ويرى وجهه وقد تكلح فى مرآة الحمام التى وجدته اخته فيه على نحو ما سمعت! .

هى حيلة اذن لجأ اليها لاستنجاد نصير ، بعد أن اعترف لنفسه أن كل الاحداث من حوله تتسرب ، وتبتعد عن الحياة العربية والإسلامية التى ينشدها لأمته وإلى أن يُعترف بهذا العبث، فقد أصبح هذا الاعتراف أشد النزعات إيلاما على نفسه، وهو منفرد بهذه الرؤية وحده ، وقد نجحت هذه الحيلة فى تحقيق مقاصدها الى حد ما ، فقد كتب له الرافعى كما لابد أن انتبه له غيره.. واستطاع بعدها كما قرأنا فى اعترافه أن يقف ويتماسك على هذه القنطرة المدوخة .. فعرف أنه بقدر ما يرفض هذا العبث يغنى نفسه .



ولسائل أن يسأل كما تساءلنا متى وقعت هذه المحاولة؟ من الواضح أنها لم تكن رد فعل مباشر لمقاطعته الجامعة - ففيما كتبه فى «المتنبى ليتنى ما عرفته»: أما مسألتى مع الدكتور طه فى الجامعة فى ذاتها فغير قادرة أن تنشىء بينى وبين الدكتور طه خصومة، وأيضا لم يكن لها أثر يمكن أن يحرك خصومة، ولا هى بعد جلسة والده التى تلقى فيها ما تلقى ، ذلك أن عمره كان وقتها سبعة عشرة عاماً . فقد قال الاستاذ العريان : كانت مقالة كفر الذبابة التى هى ضمن المقالات التى كتبها الرافعى بوحى من محمود شاكر هى آخر ما أملى على من المقالات ، وذلك فى صيف ١٩٣٥ ثم تجافينا بشأن ما .وكان آخر مجلس لنا فى قهوة «بول نور» مع الاصدقاء محمود شاكر وزكى مبارك وكامل حبيب والسيد زيادة .. ثم افترقنا بعد منتصف الليل .

ويهيأ لى أن هذا الحادث وقع وهو يضع اللمسات الأخيرة فى منهجه أى فى أواخر ١٩٣٤ أو بداية ١٩٣٥ .. وهناك سؤال ملح لماذا كان فى هذا الوقت بالذات دون غيره ؟

لأنه إذا كان عام ١٩٣٦ كان آخر عام قضاه محمود شاكر - كما قال فى اعترافه حيرة زائغة وضلالة مضنية ، فإن عام ١٩٣٦ كان أيضا هو عام صدور العدد الممتاز من المقتطف عن المتنبى : وهو أول عمل طبق فيه شاكر هذا المنهج فنجح نجاحا ساحقا . وقرظه الرافعى وقرظ المقتطف بكلام باذخ نأتى عليه فى حينه و.. دعنا نعمل العقل فى هذه الحادثة .

وحتى لا نتهم بأننا نأخذ جانب الاستاذ محمود شاكر نسأل عن كنة الحيــاة الادبية الفاسدة من كل الوجوه التى وضع رأسه فوق كفه مقابل تغييرها ؟ لاسيما وأن عمره بالنسبة لعمرنا الآن كان عصر الأنــوار المتألقة بأمير الشعراء وأمير البيان، ومارد الفكر وكاسح النقد و..

هل كان الاستعمار هو همه ؟ أم فساد المستشرقين ومن لف لفهم لإرثنا هو فزعه ؟ أم المناهج الدراسية التى وضعها دنلوب هى أزمته؟ هل كانت ألاعيب السياسة والقصر ؟ ثم ما هو النظام الصالح الذى كان ينشد محمود شاكر تحقيقه ؟ هل كان يحلم بتكوين قرية نموذجية عربية إسلامية فى القرن العشرين كما تخيل سيد قطب فى أحد كتبه ؟ أم تحقيق نظام شمولى إسلامى أو تحتمى - كما فعلت إليمن فى فترة إنغلاقها - بالعزلة الكاملة عن الحضارة الوافدة بحلوها ومرها ؟ أم هل كان يتصور أن يعيد - بمفرده الأمة العربية إلى سابق أمجادها فى عصــــر الخلفاء الراشدين أو الدولة العباسية فى قمة إزدهارها.. أو..؟ أو ... وغاب عنه أن نكبة الأمة العربية جاءت من التوارث - كما يرى البعض - يوم أخذ معاوية الخلافة غصبا ليزيد .)

إن سنة الحياة هى التطور ، والإسلام بناء وتقدم أى حضارة، وقد جــاء فى الأثر «ربوا أولادكم لزمــان غــيــر زمــانكم.. «والاستعمار والمستشرقين والاعيب السياسة والقصر كل أولئك لم يحل دون ارتفاع الآذان والجهـر به للصلوات خمس مرات فى إليوم الواحد. ولامنع

المسلمين من إمعان الفكر فى معانى القرآن الكريم الذى يسمعونه صباح مساء.. فلم يفقدوا مع كل ذلك روح الاسلام التى تحول دون الهدم حتى لثقافة الغرب وفقا لما جاء فى الأثر أطلبوا العلم ولو فى الصين» .

إن استقراء كتابات محمود شاكر تنبينا على أن رغبته لم تكن فى التغيير الفجائى.. لأنه رأى بنفسه أن فكرة التغيير سرعان ما ترتد على صاحبها كما ارتدت آراء الدكتور طه حسين فى تعميم الشك فى الشعر الجاهلى حتى كادت تعصف به.. وإنما كان كل أمله فى أن تتمسك الأمة العربية بشكل أفضل بتقاليدها وقيمها العريقة فى مواجهة التحديات الحضارية الوافدة !

فقد وصف فى كتابه «أباطيل وأسمار» ، ما أفزعه وجعله يعيش منذ شبابه صراعا يكاد يمزقه لأنه رأى الأمة العربية تنشق عن كل تاريخها الماضى وتساق إلى مجزرة نصبها لها الإستعمار وهو فرح بها نشوان ...

